

تركية النفوس

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعْبِدُهُ وَنَسْتَعْفِرُهُ، وَنَتَوْبُ إِلَيْهِ، وَنَغْوِدُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِي لَهُ، وَأَشْهُدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيرًا.
أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَهْمَّ مَا يَنْبَغِي لِلنَّاسِ أَنْ يَتَعَاهَدُوا: تَرْكِيَّةُ نُفُوسِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ الْمُتَأْخِرَةِ الَّتِي إِسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الشَّهَوَاتُ، وَارْتَطَمَتْ فِيهَا أَمْوَاجُ الْفَتَنِ وَالشَّبَهَاتِ، وَالَّتِي لَمْ يَسْلِمْ مِنْهَا إِلَّا مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - .

الْحَدِيثُ عَنْ تَرْكِيَّةِ النُّفُوسِ طَوِيلُ الدِّيُولِ؛ سَارِبُ الْمَشَارِبِ، مُتَشَتَّتُ الْأَقْنَاءِ، التَّرْكِيَّةُ هِيَ الطَّهَارَةُ وَالنَّمَاءُ وَالرِّيَادَةُ، وَتَرْكِيَّةُ النَّفْسِ الْمُرَادُ بِهَا: تَطْهِيرُهَا وَإِصْلَاحُهَا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَفِعْلِ الْمَأْمُورَاتِ، وَتَرْكِ الْمَنْهَى.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تِيمِيَّةَ - رَحْمَةُ اللَّهِ - فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ أَمْرَاضِ الْفُلُوبِ وَشَفَائِهِ: الْقَلْبُ يَحْتَاجُ أَنْ يَتَرَبَّى فَيَنْمُو وَيَزِيدُ حَتَّى يَكُمُلَ وَيَصْلَحَ، كَمَا يَحْتَاجُ الْبَدْنُ أَنْ يُرَبَّى بِالْأَغْذِيَّةِ الْمُصْلِحَةِ لَهُ، وَلَا بُدُّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ مَنْعِ مَا يَضُرُّهُ، فَلَا يَنْمُو الْبَدْنُ إِلَّا بِإِعْطَائِهِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا يَرْكُو فَيَنْمُو وَيَتَمَّ صَلَاحُهُ إِلَّا بِحُصُولِ مَا يَنْفَعُهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَكَذَلِكَ الرَّزْعُ لَا يَرْكُو إِلَّا بِهَا إِلَيْهَا.

وَقَدْ تَبَثَّ تَقْسِيرُ التَّرْكِيَّةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي "الْمُعْجَمِ الصَّغِيرِ" وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعَاصِرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلُهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَا لِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَزَكَى نَفْسَهُ».»

فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَرْكِيَّةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - مَعَهُ حَيْثُ كَانَ».

تَضَافَرَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِبَيَانِ أَهْمَيَّةِ تَرْكِيَّةِ النُّفُوسِ، وَمَا لَهَا مِنْ مَكَانَةٍ عَالِيَّةٍ، وَمَنْزَلَةٍ رَفِيعَةٍ.

وَلَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِ تِلْكَ النُّصُوصِ وَأَظْهَرَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشَّمْسِ (وَالشَّمْسُ وَضُحَّاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا (٣)

وَاللَّيلُ إِذَا يَعْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَاللَّهُمَّ إِنَّمَا فُجُورُهَا وَنَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا **﴿الشمس: ١٠-١﴾**

فَاللَّهُ أَفْسَمَ فِيهَا أَحَدَ عَشَرَ قَسْمًا عَلَى أَنْ صَلَاحَ الْعَبْدِ وَفَلَاحَهُ مَنْوَطٌ بِتَرْكِيَّةِ نَفْسِهِ، وَيُؤْكِدُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْلَى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾** **﴿الأعلى: ١٥-١٤﴾**.

كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - بِفُوزِ مَنْ حَقَّقَ هَذِهِ التَّرْكِيَّةَ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَرَاءُ مَنْ تَرَكَّى﴾** **﴿طه: ٧٦-٧٥﴾**.

كَانَتْ مُهَمَّةُ الرَّسُولِ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى تَرْكِيَّةِ نُفُوسِهِمْ، قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي خَطَابِهِ لِفِرْعَوْنَ: **﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَرَكَّى﴾** **﴿النَّازُّاتُ: ١٨﴾** وَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَّيْنِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَيِّكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** **﴿الْجَمِيعَ: ٢﴾**.

عِبَادَ اللَّهِ: تَرْكِيَّةُ النُّفُوسِ لَا سَبِيلَ إِلَيْهَا إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ، بِإِتْبَاعِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُولُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ - جَلَّ وَعَلَا - وَقَدْ أَشَارَتْ آيَةُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ السَّابِقَةِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَّيْنِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَيِّكِيهِمْ﴾** **﴿الْجَمِيعَ: ٢﴾**.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحْمَةُ اللَّهِ -: **﴿فَإِنَّ تَرْكِيَّةَ النُّفُوسِ مُسَلَّمٌ إِلَى الرَّسُولِ، وَإِنَّمَا بَعْثَتْهُمُ اللَّهُ لِهَذِهِ التَّرْكِيَّةِ وَوَلَّهُمْ إِيَّاهَا، وَجَعَلَهُمَا عَلَى أَيْدِيهِمْ دَعْوَةً، وَتَعْلِيمًا وَبَيَانًا، وَإِرْشادًا، فَهُمُ الْمَبْعُوثُونَ لِعِلَاجِ نُفُوسِ الْأَمَمِ، وَتَرْكِيَّةُ النُّفُوسِ أَصْعَبُ مِنْ عِلَاجِ الْأَبْدَانِ وَأَشَدُّ، فَمَنْ رَكَّى نُفُسَهُ بِالرِّيَاضَةِ، وَالْمُجَاهَدَةِ، وَالْخَلْوَةِ، الَّتِي لَمْ يَحِيِّ بِهَا الرَّسُولُ؛ فَهُوَ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يُعَالِجُ نُفُسَهُ بِرَأْيِهِ، وَأَيْنَ يَقْعُ رَأْيُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الطِّبِّ؟ فَالرَّسُولُ أَطْبَأَ الْقُلُوبَ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَرْكِيَّتِهَا وَصَالِحَهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، وَبِمَحْضِ الْإِنْقِيَادِ وَالْتَّسْلِيمِ لَهُمْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعْنَ إِلَيْهِ.**

تَرْكِيَّةُ الْإِنْسَانِ نُفُسُهُ تَتَحَقَّقُ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ، أَهْمَمُهَا تَرْكِيَّتُهَا بِالْتَّوْحِيدِ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى زَكَاهَ فِي قَوْلِهِ: **﴿وَوَرِيلُ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاهَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾** **﴿فَصِّلتُ: ٦-٧﴾** وَهَذَا النَّفْسِيَّرُ مَأْتُورٌ عَنِ الْبَحْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - حِبْتُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿لَا يُؤْتُونَ**

الزَّكَاةِ» [فصلت: ٧] لَا يَشْهُدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحْمَةُ اللَّهِ - قَالَ أَكْثَرُ الْمُعْسِرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدُهُمْ: هِيَ التَّوْحِيدُ: شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالإِيمَانُ الَّذِي بِهِ يَرْكُو الْقَلْبُ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْهَبَةِ مَا سِوَى الْحَقِّ مِنَ الْقَلْبِ.

وَذَلِكَ طَهَارَتُهُ وَإِنْبَاتُ الْهَبَةِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ زَكَاةٍ وَنِمَاءٍ .. إِلَى أَنْ قَالَ: فَأَصْلُ مَا تَرْكُو بِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَرْوَاحُ هُوَ التَّوْحِيدُ أَهُدِيَ كَمَا سَمِّيَ اللَّهُ تَعَالَى الشَّرِيكَ رِجْسًا وَوَسَمَهُ بِالْجَنَاسَةِ، قَالَ تَعَالَى: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأُوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قُولَ الزُّور﴾** [الحج: ٣٠] وَقَالَ: **﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسُونَ﴾** [التوبية: ٢٨].

فَدَلَّ مَفْهُومُ الْأَيْتَيْنِ عَلَى أَنَّ الطَّهَارَةَ وَالْتَّرْكِيَّةَ فِي التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - وَلِذَلِكَ قَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِفَرْعَوْنَ وَهُوَ يَدْعُوُهُ إِلَى التَّوْحِيدِ: **﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَرَكَيْ (١٨) وَأَهْدِنِي إِلَى رِبِّكَ فَتَحْشِّنِي﴾** [النازعات: ١٩-١٨].

وَتَرْكِيَّةُ الْنُّفُوسِ الْمَطْلُوبَةِ - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ - هِيَ تَرْكِيَّتُهَا بِتَصْنِيفَةِ مُعْتَقَدِهَا بِتَحْقِيقَهَا وَتَصْنِيفَهَا لِمَا حَلَقْتُ لَهُ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَقُولُ: **﴿وَمَا حَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأَنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾** [الذاريات: ٥٦] أَيْ: يُوَحِّدُونِي، وَحِمَاءِيَّهُ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ أَنَّ يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ أَصْلَهُ مِنْ ارْتِكَابِ مُكْفِرَاتٍ، أَوْ كَمَالَهُ الْمَطْلُوبِ مِنْ ارْتِكَابِ مَعَاصِ وَمُحْدَثَاتٍ.

تَحْقِيقًا لِمُفْتَضَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِلَزَامَهَا بِشَرْعِ اللَّهِ جُمْلَةً وَتَصْسِيَّلًا فِي نَطَاقِ قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمْرَتُكُمْ بِهِ فَأَتُّوْا مِنْهُ مَا أَسْتَطَعْنُمْ»**.

تَحْقِيقًا لِمُفْتَضَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحْمَةُ اللَّهِ - فِي قَوْلِهِ - جَلَّ شَانُهُ -: **﴿فَقُدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَيْ﴾** [الأعلى: ٤] قَالَ: طَهَرَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَابَعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

هَذَا - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ - مَا تَرْكُو وَتَطْهُرُ وَتَطْبِيبُ بِهِ الْنُّفُوسُ، وَتَحْيَا بِهِ الْحَيَاةُ الْطَّيِّبَةُ، تَحْيَا بِهِ الْحَيَاةُ الَّتِي بِهَا تَطْعُمُ الْإِيمَانَ وَتَتَدَوَّفُهُ، وَتَأْسُسُ بِالْطَّاغَاتِ وَتَسْتَدِلُّهَا، وَتَتَنَعَّمُ بِهَا، مِصْدَاقُ هَذَا فِي قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - **﴿ثَلَاثُ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مَا سَوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْعَبْدُ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِهِ، وَأَنْ يَكُرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْفَدَهُ اللَّهُ كَمَا يَكُرِهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾**

رَوَاهُ الْبَحَارِيُّ، وَقَوْلُهُ «ذَاقَ طَعْمَ الْأَيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبِّاً، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا». مِنْ أَعْظَمِ مَا تَرَكُو بِهِ النُّفُوسُ الصَّلَاةُ، وَلِذَلِكَ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّرْكِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَ) (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) [الأعلى: ١٤-١٥].

وَقَدْ شَبَّهَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَطْهِيرَ الصَّلَاةِ لِلنُّفُوسِ بِتَطْهِيرِ الْمَاءِ لِلْأَبْدَانِ، فَعَنْ أَيِّ هُرْبَرَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنْ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثْلُ الصَّلَواتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا» مُتَقَوْلٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «مَثْلُ الصَّلَواتِ الْخَمْسِ كَمَثْلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَاتٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. مِمَّا تَرَكُو بِهِ النُّفُوسُ الصَّدَقَةُ، قَالَ تَعَالَى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطْهِرُهُمْ وَتُرْكِيَّهُمْ بِهَا» [التوبه: ١٠٣] قَالَ الشِّيْخُ السَّعْدِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ - وَرَفِيفُهَا أَنَّ الْعَبْدَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَطَهَّرَ وَيَتَرَكَ حَتَّى يُخْرَجَ زَكَةً مَالِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُكَفِّرُهَا شَيْءٌ سِوَى أَدَائِهَا؛ لِأَنَّ الزَّكَةَ وَالْتَّطَهِيرَ مُتَوْقِفٌ عَلَى إِخْرَاجِهَا ا.هـ.

مِمَّا تَرَكَ بِهِ النُّفُوسُ وَتُطَهَّرُ تَرْكُ الْمَعَاصِي وَالْمُحَرَّماتِ: قَالَ تَعَالَى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاهَا» [الشمس: ٩] أَيْ: زَكَى نَفْسَهُ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ، ثُمَّ قَالَ: «وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَاهَا» [الشمس: ١٠] أَيْ: حَسِرَ مَنْ دَسَاهَا بِالْفُجُورِ وَالْمَعَاصِي، قَالَ شِيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحْمَهُ اللَّهُ - فَكَذَلِكَ النُّفُسُ وَالْأَعْمَالُ لَا تَرَكُو حَتَّى يُزَالَ عَنْهَا مَا يُنَاقِضُهَا، وَلَا يَكُونُ الرَّجُلُ مُتَرَكِّيًّا إِلَّا مَعَ تَرْكِ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ يُدَنِّسُ النُّفُسَ وَيُدَسِّيَّهَا.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحْمَهُ اللَّهُ -: وَالْمَقْصُودُ أَنَّ زَكَةَ الْقَلْبِ مَوْفُوفَةٌ عَلَى طَهَارَتِهِ، كَمَا أَنَّ زَكَةَ الْبَدَنِ مَوْفُوفَةٌ عَلَى اسْتِفْرَاغِهِ مِنْ أَخْلَاطِهِ الرَّدِيَّةِ الْفَاسِدَةِ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرِكِي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ» [النور: ٢١] ذَكَرَ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ عَقِبَ تَحْرِيمِ الرِّنَا وَالْقَذْفِ وَنِكَاحِ الرِّانِيَّةِ، فَلَمَّا عَلِيَّ أَنَّ التَّرَكِيَّ هُوَ بِإِجْتِنَابِ ذَلِكِ ا.هـ.

أَفْوَلُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْأَلُ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى أَنْ يَرْزُقَنَا نُفُوسًا طَيِّبَةً

رَكِيَّةَ تَرْضَى بِقَضَائِهِ، وَتَقْنَعُ بِعَطَائِهِ، وَتُكَرِّمُ بِالْفَوْزِ بِلِقَائِهِ، يَوْمَ أَنْ يُوَافِيهَا
مَا كَتَبَ عَلَيْهَا
وَأَسْتَعِفُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ فَاسْتَعِفُرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ.

الحمدُ للهُ وَحْدَهُ أَمَّا بَعْدُ:

إِنْ كَانَ ثَمَّةَ مَا يُرَكِّي الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِهِ فَلَا أَعْظَمَ مِنْ مُحَاسِبَةِ النَّفْسِ فَهُوَ أَفْضَلُ طَرِيقٍ لِتَرْكِيَتِهَا، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحْمَةُ اللهِ - فَإِنَّ رِكَاةَ النَّفْسِ وَطَهَارَتَهَا مَوْفُوفٌ عَلَى مُحَاسِبَتِهَا، فَلَا تَرْكُو وَلَا تَطْهُرُ وَلَا تَصْلُحُ الْبَنَةَ إِلَّا بِمُحَاسِبَتِهَا.. إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِمْحَاسِبَتِهَا يَطْلُغُ عَلَى عَيْوبِهَا وَنَقَائِصِهَا؛ فَيُمْكِنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا ا.هـ

وَآخِرُ مَا تَرْكُو بِهِ نَفْسُ الْمَرْءِ الدُّعَاءُ، عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَلْجأَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالْدُّعَاءِ وَالنَّصْرَاعِ؛ لِيُصْلِحَ لَهُ نَفْسَهُ وَيُرَكِّبَهَا.

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ دُعَاءِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ: «اللَّهُمَّ أَتَ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَرَزَّكَهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ رَزَّاكَهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا» وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ: الْهُدَى، وَالْتُّقْيَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغُنْيَ».

وَفِي "الْمُسْنَدِ" وَالْتَّرْمِذِيِّ أَهْنَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَمْ حُسَيْنِ بْنِ عُبَيْدٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ أَهْمَنِي رُشْدِي، وَقَنِي شَرَّ نَفْسِي».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ اللهَ جَلَّ قُدْرَتَهُ، وَتَعَالَى أَسْمَاؤُهُ كَمَا أَمْرَنَا بِتَرْكِيَةِ النُّفُوسِ بِطَاعَةِ اللهِ فَلَقَدْ نَهَا نَعْمَلَهُ عَنْ تَرْكِيَةِ النُّفُوسِ بِالْدُّعَاوَى الَّتِي لَا مُسْتَنَدٌ وَلَا دَاعِيَ لَهَا.

يَقُولُ - جَلَّ وَعَلَا -: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَحْنَهُ فِي بُطُونِ أَمَمَاتِكُمْ فَلَا تَرْكُو أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْقَى» [النَّجْم: ٣٢] أَيْ: لَا تُطْرُو هَا وَتُشْتُو عَلَيْهَا، وَتَمْدُحُوهَا، لِتُحَمَّدَ بِمَا لَمْ تَعْفَلْ، أَوْ لَتُنْمَنْ، وَتُرْزَائِي، وَتُسَمِّعَ لِمَا قَدْ فَعَلْتُمْ مِنْ أَعْمَالٍ، فَيَجْبَطُ عَمَلُهَا بِدِلْكُمْ وَالْعِيَادُ بِاللهِ.

يَقُولُ - جَلَّ وَعَلَا -: «بِيَأْيِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ» [البَقْرَة: ٢٦٤] وَيَقُولُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَنْ يَرَأِي اللهَ بِهِ، وَمَنْ سَمَعَ اللهَ بِهِ».

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ: قَدْ يَعْمَلُ الْعَبْدُ الدُّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ وَيَعْمَلُ الطَّاعَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا النَّارَ، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَعْمَلُ الدُّنْبَ فَلَا يَرَالُ نُصْبَ عَيْنِيهِ إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَى ذَكَرَ دَنْبَهُ، فَيَحِدُثُ لَهُ الْأَنْكَسَارَ وَتَوْبَةً وَاسْتَغْفَارًا وَنَدَمًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ تَجَاهِتِهِ، وَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَلَا تَرَالُ نُصْبَ عَيْنِيهِ إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَى، كُلُّمَا ذَكَرَهَا أُورَثَتْهُ عُجْبًا وَكِبْرًا وَمِنَّهُ، فَتَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ.

فَأَنْتُمُوا اللهُ - عِبَادَ اللهِ - وَرَكُووا أَنْفُسَكُمْ، وَلَا تُعْجِبُوا بِأَعْمَالِكُمْ، وَأَكْثُرُوا

مِنَ الدُّعَاءِ أَنْ يَرْزُقُكُمُ اللَّهُ أَنْفُسًا رَّكِيَّةً، وَفُؤُوبًا لِلْحَقِّ رَضِيَّةً.
إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَوَاتٌ عَلَيْهِ
وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا ﴿الْأَحْزَاب: ٥٦﴾.